باب الجاية أو موسى وكولومب وسنمار*

أما موسى فهو موسى بن نُصَير القائد العربي فاتح المغرب والأندلس وما يليها. ونريد من الكلام عليه في محاضرتنا هذه أن نعرض على أبصاركم أيها السادة صورة بديعة من صور حياة البطولة العربية ، وأن نملي على أسماعكم صفحة من صفحات عظمة الاسلام قبل أن يمر عليه قرن واحد.

وأما (كولومب) فهو (كريستوف كولومبس) الايطالي فاتح أميركا أو مكتشفها المشهور. وأما (سنمّار) فهو الراز العربي[1] الذي بنى قصر الخورنق للنعمان فكان بناء فخما هال أمره النعمان حتى قال لسنمار ما أعجب بناء هذا القصر فقال له سنمار: والأعجب منه أيها الملك أن فيه حجراً اذا اقتلع من موضعه انهار البناء على الأثر. فقال له النعمان وأين هو ذلك الحجر؟ أرنيه. فأراه إياه — وكانا في شرفة القصر — فأمسكه النعمان من تلابيبه وألقاه الى الحضيض فسقط ميتاً لا حراك به. وانما فعل النعمان هذا ليبقى سرّ ذلك الحجر دفيناً فلا يدري به أحد. ومن ثم ضرب العرب المثل بسنمار فقالوا: فلان جزى فلاناً جزاء سنمار وفلان لقي من قومه ما لاقاه سنمار. أما حشرنا سنماراً بين موسى وكولومب فالسبب فيه أن الاثنين لقيا من قوميهما العرب والاسبانيول ما لقيه سنمّار: (موسى) فتح الاندلس فجازاه ملكه العربي أقبح جزاء. و (كولومب) فتح أميركا فكافأه ملكه الاسبانيولي شرّ كفاء.

(*) القيت هذه المحاضرة في ردهة محاضرات المجمع العلمي العربي بتاريخ ٤ نيسان سنة ١٩٣٠.

(١) اي البناء الحاذق في الركازة اي صناعة البناء.

واذ قارنا بين الرجلين من جهة أن موسى وقومه خطر لهم وجود عالم جديد في البحر المحيط كما خطر لكولمب أنكر الشعوبية علينا ذلك وقالوا إن العرب لم يكونوا يشتغلون للاكتشاف ولا للثقافة العالمية كما اشتغل الافرنج. وانما كانوا يشتغلون للفتح والاستيلاء على البلاد العامرة توسيعاً لنطاق الاسلام، ويزيدون على ذلك قولهم: انه لم يعرف في فاتحي العرب الأولين عالمٌ فلكي أو طبيعي خطر بباله وجود قارة بعيدة مجهولة لا فائدة للاسلام منها.

فكل مايهم الفاتح العربي أن يستولي على البلاد العامرة. أما الاكتشافات والاختراعات فانما تخطر ببال العالم الفلكي والعالم الطبيعي ونحوهما[1].

هذا ما يفجؤنا به أولئك الذين يريدون ألا ينسب للعرب عمران ولا حب عمران ولا فكرة عمران. فهل نتهيّبهم ونسكت عن معارضتهم ونحن نشعر في أنفسنا بالمقدرة على اثبات دعوانا؟

* * *

طموح قواد العرب الى الفتح والتساؤل عن بلاد مجهولة يستولون عليها — يمكن أن نستخرجه من قول (عقبة بن نافع) الذي كان أول قائد عربي تغلغل في شمال أفريقيا، فانه لما وصل الى طنجة خاض ساحل البحر المحيط أو بحر الظلمات كما يسميه العرب خاضه بجواده حتى أتجه الماء ثم اتكأ على رمحه ورفع رأسه الى السماء وقال: يارب لولا هذا البحر الذي اعترض طريقي لمضيت في البلاد مجاهداً في سبيلك.

---

(١) يكذب هذا القول ما قرأناه في بعض صحف بيروت بقلم العالم الفاضل الأستاذ راجي الراعي قال حفظه الله ما نصه: «كتب كولومبس عن نفسه أنه لما قرأ تأليف ابن رشد الفيلسوف العربي واطلع على رأيه في استدارة الأرض خطر له ان يجتاز الأوقيانوس الاطلنطيكي او بحر الظلمات كما كان يسميه العرب وهكذا يكون للعرب اليد الطولى في اكتشاف اميركا».

اذن كان من همّ فاتحي العرب أن يجدوا بلاداً يستولون عليها بقصد نشر دينهم الجديد أو ثقافتهم العربية الجديدة . ثم جاء (موسى بن نصير) فأكمل الفتح واستولى على جميع البرور والبحور والجزائر في شمال أفريقية وتخطاها الى اسبانيا . ويبعُد على مثله وهو من أذكياء الفاتحين أن لايخطر بباله وجود بلاد في أقصى بحر الظلمات يستولي عليها . لاسيما أنه كان بارعاً في علم الأنواء والسفر في البحار يدلكم على ذلك مارواه ابن عساكر في تاريخه الكبير من أن مروان ابن الحكم اصطحب موسى معه الى مصر قد سار اليها ليستخلصها من أشياع خصمه ابن الزبير . فلما بلغ المصريين زحفه عليهم وجهوا سفناً للغارة على سواحل الشام فخاف مروان على الذراري والعيال واستشار موسى فقال ان صح خبر خروجهم فقد كُفيتهم . قال وكيف ذلك ؟ قال لأني عالم بهذا البحر (يعني ان هذا البحر سيغرق سفن المصريين) فقال له مروان ارجع اذن الى السواحل والنقط غرقاهم . فرجع موسى حتى رأى في بعض الليالي تكدراً في النجوم فقال (لا يبقى الليلة في البحر مركب إلا تكسر) ثم بلغ عكا ويافا فوجد مراكب المصريين محطمة فأخذهم أسرى ورجع الى مروان فادركه قبل دخوله مصر وأخبره فسرّ جداً وأجازه بالف دينار . واستشاره في الأسرى فاشار عليه باطلاقهم فيكونون عوناً له في مصر ، فسرحهم مروان ، فقال بعض هؤلاء الأسرى :

جزاك الله يا ابن نصير خيراً ... فقد أنجيت من قتلٍ وأسر
عشية قال مروان أشيروا ... عليّ برأيكم في أهل مصر
فمن بك كافراً نعماك يوماً ... فاني شاكر لك طول عمري

فالتفكير في البحار وسلوكها ومعرفة مافيها ليس ببعيد عن علم موسى ابن نصير وهمته بل هو باشر البحث عن بلاد مجهولة أيضاً (كما روى مؤلف كتاب الامامة والسياسة) قال : أرسل موسى أناساً في مراكب وأمرهم

أن يسيروا حتى ينتهوا الى جزيرة في البحر فيها صنم يشير باصبعه أمامه . ثم يسيروا الى جزيرة أخرى فيها صنم كذلك ثم يسيروا الليالي والأيام حتى يأتوا جزيرة فيها أناس لايفهمون كلامهم وقال لهم : فاذا بلغتم ذلك المكان فارجعوا فان ذلك أقصى جهة الغرب وليس وراءه شيء إلا مياه المحيط . فهذا الخبر الذي رواه لنا مؤلف (كتاب الامامة والسياسة) يدل في جملته لا تفصيله على أن موسى انتبه الى وجود يبَس في ذلك البحر الفسيح .

ثم بعد حين من الزمن قام رهط من العرب وهم الذين اشتهروا باسم (الأخوة المغرورون) فغامروا في ركوب المحيط لاكتشاف البلاد الجديدة التي تنبأ عنها موسى بن نصير . وقد ذكر الادريسي الجغرافي العربي المشهور الذي عاش في أواسط القرن السادس للهجرة فقال : ان ثمانية رجال كانوا أبناء عم خرجوا من أشبونة[1] فركبوا بحر الظلمات لمعرفة مافيه . فعمّروا مركباً وأدخلوا فيه من الماء والزاد مايكفيهم أشهراً . ثم دخلوا البحر في أول طاروس الريح الشرقية . فجروا بها نحواً من أحد عشر يوماً فوصلوا الى بحر غليظ الموج كدر الروائح كثير الترشاش قليل الضوء فايقنوا بالهلكة . فردوا قلوعهم وساروا الى الجنوب اثني عشر يوماً فخرجوا الى جزيرة الغنم وفيها من الغنم مالا يأخذه عد ولا تحصيل وهي سارحة لاراعي لها ، فقصدوا الجزيرة فوجدوا فيها عين ماء جارية وعليها شجرة تين بري فأخذوا من تلك الغنم فذبحوها ووجدوا لحومها مرة فأخذوا من جلودها وساروا الى الجنوب اثني عشر يوماً الى أن لاحت لهم جزيرة فنظروا فيها عمارة وحرثاً فقصدوا اليها ليروا مافيها فما كان غير بعيد حتى أحيط بهم في زوارق فأخذوا الى مدينة على ضفة البحر فانزلوا فيها فرأوا رجالاً شقراً زُعُراً[2] شعورهم سبطة طوال القدود ولنسائهم جمال عجيب فحبسوا

(١) التي تسمى اليوم ليسبون وهي عاصمة قسم من الأندلس يسمى البورتغال .
(٢) جمع ازعر : القليل الشعر المفترق .

في بيت ثلاثة أيام ثم أحضروا بين يدي الملك فسألهم عن أمرهم فأخبروه بكل خبرهم وانهم اقتحموا البحر ليروا مافيه من الأخبار والعجائب . فضحك الملك وقال لهم : إن أبي كان أركب قوماً من عبيده هذا البحر فساروا فيه شهراً الى أن انقطع عنهم الضوء فرجعوا . ثم أن الملك عمّر لهؤلاء الملاحين زورقاً وأنزلهم فيه بعد أن عصب عيونهم وأرجعوا الى ساحل بر فانزلوا فيه فسمعوا ضوضاء أناس فصاحوا بهم فأتوا اليهم وحملوا وثاقهم وسألوهم عن خبرهم فأخبروهم وسألوهم عن بلدهم (أشبونة) قالوا إن بينكم وبينها شهرين . فقال كبيرهم (أسفي) فسميت هذه المدينة التي نزلوا بهـا باسم (أسفي) (وهي مازالت الى اليوم قرصنة مراكشية على بحر الاطلنطيق) .

ثم قال الادريسي : وفي مدينة (أشبونة) بموضع قرب (الحامة) درب يسمى (درب الاخوة المغرورين) نسبة الى الملاحين الثمانية المذكورين اه) .

والادريسي راوي خبر هؤلاء الاخوة عربي أندلسي ولد في سبتة ونشأ في قرطبة . فليس هو غريباً عن البلاد التي جرت فيها حادثة الأخوة المغرورين . وزد على ذلك أنه ابن الصنعة أي أنه جغرافي متخصص في علم تقويم البلدان وصنع الكرات الأرضية والفلكية . وبديهي أن هؤلاء الملاحين المغرورين كانوا بعد رجوعهم من سفرتهم يحدثون الناس بما رأوا وما سمعوا فمن مصدق ومن مكذب . ومن كذبهم كان ينبزهم بالمغرورين فلقبوا بذلك . وذهب بعضهم الى أنهم انما وصلوا الى جزائر الخالدات وهي التي تسمى اليوم (كناريا) ولم يصلوا الى أميركا نفسها . وأشبونة أو (ليسبون) التي مثلت على مرسحها حادثة الأخوة المغرورين هي نفسها المدينة التي عاش فيها كولومبس ومثل على مرسحها حادثة اكتشاف أميركا . فرواية موسى بن نصير العربي عن وجود بـــلاد في المحيط ، ثم رواية

الاخوة المغرورين العرب عن وجود بلاد أيضاً ، لابد أن تكونا أحدثتا فكرة بين عرب الأندلس عامة وسكان أشبونة خاصة بأن في بحر الظلمات بوراً يسكنها أمم أمثالنا . وكانوا يتوارثون هذه الفكرة جيلاً بعد جيل حتى أصبحت من الأساطير الوطنيـــة والأقاصيص الشعبية . ويشبه حادثة الاخوة المغرورين ما ذكره (ابن الوردي) في جغرافيته من أنه يوجد وراء جزر الخالدات جزائر عظيمة فيها خلق كثيرون . وقد وصل اليها أحد النوتية عن غير قصد بسبب مطاردة الرياح ، ثم رجع منها بعد أن يئس من الحياة . وقد وصف ابن الوردي تلك الجزائر وصفاً يكاد ينطبق على وصف بلاد أميركا . وابن الوردي عاش في القرن الرابع عشر للميلاد أي قبل كولمب باكثر من مئة سنة .

ونزيد على ذلك أن الصوفي العربي الكبير (الشيخ محي الدين بن عربي) وهو أندلسي أيضاً . وقد ذكر في بعض تآليفه (أن وراء المحيط الاطلنطيقي أمماً من بني آدم وعمراناً) وعاش ابن عربي في القرن الثاني عشر للميلاد أي قبل اكتشاف أميركا بنحو ثلاثة قرون . ولم ينزل عليه وحيٌ بوجود بلاد عامرة في المحيط وانما هو دوّنَ ما سمعه من عرب الأندلس وطنه . فجوّ بلاد الأندلس كان مكهرباً بفكرة وجود بلاد مسكونة وراء بحر الظلمات . وجاء في كتاب (مسالك الأبصار) الذي طبع حديثاً في مصر (ج ١ ص ٣١) ما نصه :

قال شيخنا فريد الدهر أبو الثناء محمود بن أبي القاسم الأصفهاني أمتع الله به ، لا أمنع أن يكون ما انكشف عنه الماء من الأرض من جهتنا منكشفاً من الجهة الأخرى . واذا لم أمنع أن يكون منكشفاً من تلك الجهة (أي واذا أمكن أن يكون في الجهة المقابلة برّاً تكشف عنه الماء) لا أمنع أن يكون به من الحيوان والنبات والمعادن مثل ماعندنا أو من أنواع وأجناس أخرى اه) .

وعلق العلامة أحمد زكي باشا (ناشر كتاب مسالك الأبصار) على كلام أبي الثناء الاصفهاني ما يلي :

الاصفهاني وهو بمصر فضل السبق على كريستوف كولمبس وهو بالاندلس لأنه قال بهذه النظرية قبله بقرن ونصف . وللأصفهاني فضل أكبر على مكتشف أميركا : لانه تخيل وجودها بقوة الفطنة والاستدلال . وأما كولومب فتخيل فقط وجود طريق جديد يوصل للهند من جهة الغرب . وأبو الثناء عاش قبل كولومب بمئة وخمسين سنة أي أنه توفي سنة ٧٤٩هـ (١٣٤٨ م) وأما كولومب فقد اجتهد في اقناع فرديناند وايزابلا صاحبي الأندلس بصدق نظريته في سنة ١٤٩٢ م (٨٩٨ هـ) .

هذا ما قاله أحمد زكي باشا ولكن لا يخفى أن كولومب اتخذ بروز القارات الأرضية القديمة من جملة الأدلة على وجود القارة الجديدة : فان القارات القديمة تشغل نصف الكرة الشرقي فاذا لم يكن في النصف الغربي المقابل قارات يابسة بارزة تعادل ثقلها القارات الأولى اختلت موازنة الكرة الأرضية واضطربت . وهذا ما انتبه اليـــه أبو الثناء محمود الاصفهاني قبل كولومبس بمئة وخمسين سنة . فمن مجموع هذه الأخبار يصح لنا أن نقول بان العرب خطر لهم وجود أميركا أو بروز يابسة في أقصى الاطلنطيق .

ونحن لم نقل انهم اكتشفوها اكتشاف تحقيق وانما قلنا أن وجودها كان يخطر ببال فاتحيهم البعيدي الهمة أمثال ابن نصير وملاحيهم القوي العزيمة أمثال الاخوة المغرورين وجغرافيهم الواسعي الخبرة النيّري البصيرة أمثال الادريسي وعلمائهم الاحرار الفكر الجليلي القـــدر أمثال الشيخ الأكبر وأبي الثناء محمود .

وحاول بعض العرب أن يبرز هذه الفكرة الى حيز الوجود فلم يوفق لعدم تهيؤ الأسباب الكافية في زمنه حتى تهيأت في زمن كولومب وايزابيلا . اما ان الفكرة العربية كانت من جملة ما حفز كولومب على اقتحام الاطلنطيق

لاكتشاف يابسة فليس ذلك من الأمور البعيدة وان كان الشعوبيون لايذكرون هذه الفكرة العربية في جملتها .

كولومب ايطالي الجنس لكنه توطن أشبونة (ليسبون) وتزوج ابنة قبطان من أهاليهـا وكان عمره يومئذ ٣٥ سنة وقد قضى حياته يمارس الملاحة والعمل في البحر . وكان يجالس سكان ليسبون العرب الذين بقوا الى زمنه ويعاشرهم ويصغي الى حديثهم ولابد أن يكون التقط منهم أخبار أجدادهم التي من جملتها فكرة وجود بلاد في بحر الظلمات(١) وليس هذا

(١) بعد نحو ٢٣ سنة من كتابة هذه المحاضرة قرأنا في مجلة (الشرق) العربية التي تصدر في البرازيل لصاحبها موسى كريم - مقالا عنوانه (بحث في مغامرة الفتية المغرّرين والاشهر المغرورون) للفاضل السيد (محمد الفاسي) المراكشي جاء في آخره مايؤيد رأينا الذي ارتأيناه من أن (كولومبس) انما استنار في قصد أميركا بآراء العرب وكتاباتهم وشيوع وجود عالم آخر في أطراف البحر الاطلنطيقي بين سكان ليسبون وهم أهل بلده وكانوا يومئذ عرب . قال الفاضل الفاسي ما نصه :

وان كان الفتية المغرورين لم يصلوا الى أميركا فلا شك أن رحلتهم هذه أثرت في اكتشافها اذا كانت قصتهم هذه شائعة بدون شك في كتب الجغرافية التي أخذ الغربيون في أول نهضتهم يؤلفونها أو ينقلونها عن العرب فوصلت الى مسامع (كولومبس) هي وغيرها من المعلومات البحرية والملاحية التي اعتمد عليها في محاولة الوصول الى الشرق من طريق الغرب نظراً لكروية الأرض ومما هو ثابت عند علماء هذا الشأن ان كولومبس درس قبل اقدامه على رحلته كتباً كثيرة تصف السفن العربية والآلات المستعملة في الملاحة عندهم كاسطرلابات ونحوها واطلع على اوصافهم للبلدان والبحار والجزر وعلى خرائطهم بل يقال انه وقف على كتاب جغرافي عربي واستعمله بنصه العربي مباشرة بدون ترجمة ولعله استعان ببعض المدجّنين ممن كانوا تحت النفوذ الاسباني وهذا الكتاب لا يزال موجوداً وقد عرض في السنة الماضية بمناسبة مرور خمسة قرون على ولادة كولومبس في المعرض الذي أقيم بسقط رأسه (جنوة) عندما زرتها بالصيف الماضي ولم يذكر اسم الكتاب المعروض وانما جعل تحت زجاجة مفتوحا وقد رسم على أسفل الصفحتين الظاهرتين خريطة تمثل منابع النيل ومسيله الى مصبه بالبحر الأبيض مما يدل على أن هذا الكتاب هو—

محتملاً فقط بل هو لعمري الراجح والا فلماذا لم توجد فكرة اكتشاف أميركا في انكلترا أو فرنسا مثلاً ، بل وجدت في أسبانيا وفي ليسبون حيث عاش الاخوة المغرورون لو لم تكن ثمة فكرة قديمة مختمرة في عقول أبناء البلاد .

وقول الشعوبية إن فاتحي العرب كموسى بن نصير انما يهمهم التغلب وتوسيع نطاق الاسلام دليل لنا لا علينا اذ أن طموحه هذا يجعله يفكر في وجود بلاد وراء البحار يتغلب عليها ويوسع بها نطاق الفتح العربي .

ولا معنى لقولهم : ان موسى لم يكن فلكيا ولا طبيعياً حتى يخطر بباله وجود قارة مجهولة لأن الطموح الى البلاد المجهولة ومحاولة الوصول الى

— (نزهة للشتاق) الادريسي لأنه هو أول من عين منابع النيل وبما أن هذا الكتاب - أي نزهة للشتاق - الذي كان بين يدي كولومبس هو الذي حكى لنا قصة محاولة الشبان العرب الاشبونيين (الليسبونيين) معرفة نهاية بحر الظلمات فلا شك ان هذه القصة من جملة ما أثر على فكرة للمكتشف الايطالي العظيم . وهكذا لم تذهب محاولتهم (الفتية المغرورين) كلها سدى وكان لهم نصيب في اكتشاف ماوراء بحر الظلمات اه .

عن مجلة الشرق كانون اول سنة ١٩٥٢

وأوضح العليم جيفري كبير المحاضرين في جامعة اوتوا وتو ستراند لعلم الانسان ان الرحالين العرب م اكتشفوا القارة الاميركية قبل ان يبلغ كريستوف كولمبس سواحلها بنحو ٥٠٠ سنة .

وقد بنى العليم جيفري بيانه على اكتشاف جاجم من اصل حامي في مجرى نهر ريو كراندي منذ مدة وقال : ان العرب كانوا في القرن العاشر للميلاد يسيطرون على حوض البحر الأبيض وبلغوا السواحل الغربية للقارة الأفريقية ومن هناك اجتازت سفنهم المحيط الأطلسي ووصلت سواحل اميركة حيث اسس العرب بعض المستعمرات ، واستشهد العليم جيفري على صحة أقواله باكتشاف جاجم آدمية من سكان أفريقية في كهوف بجزيرة الباهاما الواقعة في خليج مكسيكو .

عن جريدة (النواعير) الحموية سنة ١٩٥٢

الأصقاع البعيدة هو من دأب كبار الفاتحين أمثال الاسكندر ونابليون وان لم يكونوا طبيعيين ولا فلكيين ، وقائدنا العربي موسى لم يكن أضعف همة منهم .

ولا معنى لقولهم إن موسى إنما هو فاتح يهمه أن يستولي على بلاد موجودة ولا يفكر في اكتشاف بلاد معلومة ، فقد ذكر ثقات المؤرخين (أن موسى لما أجمع أمره على فتح الاندلس وجزائر البحر أنشأ دار صناعة (ترسانة) بتونس لبناء السفن وأجرى خليجاً من البحر طوله اثنا عشر ميلاً وحفر للخليج حتى أقحمه دار الصناعة التي بناها فصارت مشى المراكب إذا عصفت الرياح ثم أمر بصناعة مئة مركب فصنعت له) .

فالذي ينشيء مثل هذه الدار لبناء السفن ويجري اليها مثل هذا الخليج لا يستبعد عليه أن يفكر في بلاد مجهولة ويحاول الوصول اليها وكثيراً ما يرجع الخلاف والنزاع بين فريقين الى اعتبارات لفظية : يقول الشعوبيون مثلاً إن الاكتشافات والمكتشفين والاختراعات والمخترعين — هذه أمور عصرية استجدت في الازمنة المتأخرة فمن أين للعرب المتقدمين أن يعرفوها ؟ فنقول لهم هذا انخداع بالالفاظ والا فان الذي استجدّ في عصرنا انما هو هذه الألفاظ التي ذكرتموها أما معانيها ومدلولاتها فامور قديمة مشتركة بين القدماء والمحدثين . فطموح (موسى) و (كولومب) الى بلاد بعيدة والتفكير في الوصول اليها — شيء واحد لكن المتقدمين كالعرب كانوا يسمونه (فتحاً وتغلباً واستيلاء) والمتأخرين سموه اكتشافاً واستعمارا . وان كان موسى أحب فتح البلاد الجديدة ليوسع بها نطاق الاسلام فان كولمب أحب فتحها ليوسع بها نطاق مملكة أسبانيا . وان قيل ان موسى كان يطمع بالغنائم فان كولومب أيضاً كان يطمع بالذهب . بل ربما كان موسى يريد أن ينشر في البلاد الجديدة دين قومه ولغتهم وثقافتهم ويتوسل الى ذلك بترغيب جنوده في الغنائم بينما كولومب لم يفكر الا في فتح طريق الى

بلاد الثروة وأن يكون رئيساً عليها : يدلك على ذلك انه لما عرض رأيه في اكتشاف أميركا على (يوحنا الثاني) ملك البورتغال قال له (إنه إذا فتح تلك البلاد كان له (أي لكولومب) الحق أن يكون نائباً عليها وأن يكون له عُشْر ايراداتها) فلم يقبل (يوحنا) منه ذلك وساء ظناً به .

فجاء كولب ايزابيلا ملكة أسبانيا وقال لها : (اسمحي لي ببعض السفن لاكتشاف أراضي جديدة ذات ثروة وغنى بشرط أن أكون نائباً عنك وأن يكون لي عشر ما ينتج من تلك الاكتشافات) فغرض كولب هو الزعامة والمال لا خدمة علم الجغرافيا والطبيعة والفلك حتى يقال انها أمور لم تخطر لموسى العربي على بال .

ولما وصل كولب وبحارته الى أميركا وداسوا باقدامهم ترابها ملأوا الدنيا بعطعطتهم وصراخهم الذهب الذهب . ثم كان الأوروبي أو الاسبانيولي اذا رأى قرطاً من ذهب في أذن الهندي الاميركي أو خزامة في أنفه ولم يمكنه أن ينتزعها بلطف نزعها بعنف . ولو أدى ذلك إلى شرم الأنف .

ومن ثم قال بعض فلاسفة أوربا المنصفين (لم يشهد التاريخ فاتحاً أرحم من العرب) . فغير بدع اذن أن نقول أن موسى وقومه العرب كانوا يفكرون في الوصول الى بلاد جديدة وضمها الى العالم القديم لخير الانسانية وتوسيع نطاق الثقافة العربية(١) .

وصفنا لكم أيها السادة المقارنة بين موسى وكولب من حيث علاقتهما

---

(١) كتبت هذه المحاضرة سنة ١٩٣٠ وفي أول سنة ١٩٣٣ اي في ٢٣ كانون ثاني قرأت في الأحرار خلاصة كتاب نشر في جريدة (الجامعة العربية) التي تصدر في القدس والكتاب مرسل من الاستاذ الاسبانيولي الغرناطي : (ميكل الفارس سلامنكا) الى الأمير شكيب أرسلان جاء فيه مانصه : (انني اعلم حق العلم انه لولا العلم العربي لما تمكن (خريستوف كولومب) من اكتشاف القارة الأميركية فلقد كان العرب على علم بطريق اميركا وكان هذا الطريق يعرف عندهم بطريق الهند) اهـ .

باكتشاف أميركا : أحدهما فكر وقدّر والآخر نفّذ الخطة وقرّر . على أن موسى — وإن لم يكتشف أو يستعمر بلاداً مجهولة — فانه استعمر بلاداً معلومة لا تقل عن أميركا في ذلك الزمان فائدة ونفعاً للعرب أعني بلاد الأندلس : ذلك الفردوس المفقود .

ومن مواضع العجب في المقارنة بين موسى وكولب سوء المكافأة والمجازاة التي جوزيا بها . فاما كولب فان قوماً سعَوا به لدى فرديناند ملك اسبانيا واتهموه بالخيانة لبلاده والكذب على مليكه فأرسل فرديناند الى أميركا وفداً فاحضره الى البَلاط مكبلاً بالقيود وعامله أسوأ معاملة . ومزق كتاب العهد الذي عاهده فيه بشأن اعطائه الولاية على البلاد المكتشفة . ولولا خوف هياج الشعب لقتله . ثم قضى كولب باقي حياته في شيخوخة معذبة . ولما دنت وفاته أوصى أن يدفنوه وفي رجليه القيود التي كانوا كبّلوه بها . حتى إذا كان يوم الدينونة نهض من قبره ورسف بقيوده ووقف مع زميله موسى بين يدي ربه وقالا له : انظر يارب ماذا لحقنا من جور الخلق . فأنت الكفيل باقامة العدل ونصرة الحق .

لا جدال في أن الرجلين كانا من أكبر رجال التاريخ وأشهر نوابغ العالم الذين خدموا ملوكهم وبلادهم بصدق واخلاص فكان جزاء الرجلين من ملوكهم كفران الجميل . ومقابلته بالتعذيب والتنكيل كما فعل النعمان بستمار المسكين .

وموضع الغرابة في الأمر أن موسى بن نصير أهدى اسبانيا الى ملوك بني أمية وكولب أهدى أميركا الى ملوك اسبانيا فجوزي كل منها بأقبح الجزاء وكانت ساحة الظلم وكفران النعمة هي اسبانيا المشؤومة . كأن ملوك اسبانيا قرأوا ماكافأ به الامويون فاتحهم العظيم موسى فتعلموا منهم هذا الدرس القاسي في معاملة فاتحهم العظيم كولب . ومن الغريب أن الدهر نجمّ في وجه ملوك اسبانيا على سوء صنيعهم مع كولب كما نجم

من قبل في وجه ملوك أمية فثلّ عرشهم وأباد ملكهم فلم تقم للأمويين قائمة كما أصبح من المتعذر أن تقوم لملوك اسبانيا قائمة في أميركا ، وهناك جمهورية (العم سام) تتربص بها الدوائر وقد وضعت يدها على تراثها ولم تبق لها من فتوحاتها الا مالايسمن ولايغني من جوع .

بقي علينا أن نعرف كيف كانت مجازاة ملوك بني أمية لقادمهم موسى . ذكر المؤرخون أن الخليفة الوليد بن عبد الملك كان يوجس خيفة من أخيه ولي عهده سليمان ويعلم أنه يتمنى موته ليتبوأ العرش مكانه فكان الوليد يكتب اليه معاتباً وسليمان يعتذر ويتنصل . وقد ظهر أثر الخلاف بينهما على أشده بعد ما فتح موسى بن نصير الاندلس وأراد العودة الى دمشق فكان الوليد يستحثه على القدوم خشية أن يموت ولا يرى الكنوز التي ظفر بها موسى في الأندلس بل يأخذها ولي عهده سليمان . وهذه الكنوز بمثابة ما يسمى (جواهر التاج) اليوم . وكان سليمان يرسل سراً الى موسى وهو قادم الى دمشق يأمره بالتريث والبطء أملاً بموت أخيه قبل قدومه ، فلم يطعه موسى ، بل قرر أن يمشي بموكبه مشياً طبيعياً : (مشي السحابة لاريث ولا عجل) . إذ أن في البطء خيانة لخليفته الوليد . وفي العجلة إغاظة لولي عهده سليمان وهو يحب أن يقف بينهما موقف الحياد .

ثم وصل موسى الى دمشق وبعد وصوله بأربعين يوماً مات الخليفة الوليد . وفي خلال هذه المدة تصرف الوليد بغنائم الاندلس كما يشاء . فكسر المائدة التي جاء بها موسى ويسمونها (مائدة سليمان) وعمد الى أفخر مافيها من الجواهر والى التيجان ومائدة الجزع فجعله في الكعبة . وفرق سائر الاعلاق النفيسة على ذويه وبطانته وخاصة أهله . كل ذلك نكاية بأخيه سليمان لئلا يتمتع بها بعده .

وما فعله الوليد على بشاعته أخف بكثير مما كان يفعله الملوك بعده . وأشهرهم في ذلك العباسيون والعثمانيون فانهم كانوا يقتلون أولياء العهود

ويمزقونهم شر ممزق . أما الوليد فاكتفى باغاظة ولي عهده وشفى قلبه منه بتمزيق غنائم الأندلس . ثم لما أفضت الخلافة الى سليمان دعا بموسى فعنفه وكان مما قاله له (والله لأقللنّ عددك ، ولأفرقنّ جمعك ، ولأبددنّ مالك ، ولأضعنّ منك ما كان يرفعه غيري ممن كنت تمشيه أماني الغرور) فجعل موسى يعتذر اعتذار الرجل الحر المخلص المؤمن فلم يقبل سليمان منه ذلك وأمر به فوقف في يوم صائف شديد الحر . وكان شيخاً كبيراً بادناً (أي سميناً) وبه نسمة (وهي علة الربو وتسمى علة الشعب أيضاً) فلما أصابه حر الشمس وأتعبه الوقوف هاجت عليه علته وجعلت قربة العرق تعتوره (أي كان العرق يتصبب منه بكثرة) حتى سقط مغشياً عليه .

وكان عمر بن عبد العزيز ذاك الخليفة الصالح حاضراً في المجلس . قال عمر : والذي منعني من الشفاعة فيه ما كنت أعلمه من قسم سليمان وحقده . فخشيت ان ابتدأته في الشفاعة به أن يلح عليه بالعذاب نكاية بي ، وما مر بي يوم كان أعظم عندي ولا كنت فيه أكرب من ذلك اليوم لما رأيت من الشيخ موسى (وأراد بالشيخ أنه هرم مسن) وما كان من بُعد أثره في سبيل الله وما فتح الله على يديه . قال عمر : (ولما وقع موسى الى الأرض التفت سليمان إلي وقال : ما أظن إلا أني خرجت من يميني) . قال عمر : فاغتنمت الفرصة وقلت : يا أمير المؤمنين ، شيخ كبير بادن وبه نسمة قد أهلكته وقد خرجت من يمينك : وهو موسى البعيد الأثر في سبيل الله العظيم الغناء عن المسلمين) ثم عفا عنه سليمان لقاء فدية عظيمة من المال وعاد الى قبوله في مجلسه وملاطفته في الحديث واستشارته أحياناً(١) . ثم عاد سليمان الى ايذاء موسى لأسباب عرضت : ذلك أنه

(١) ويظهر ان عمر بن عبد العزيز على عظيم اعجابه بموسى كان لايعجبه منه كثرة حبه للدنيا . فقد رووا ان ابنا صغيراً لعمر اهوى بيده الى دنانير امام—

بلغه أن عبد العزيز بن موسى (الذي استخلفه موسى على ولاية الأندلس) يريد الخروج من طاعة سليمان انتقاماً لأبيه فأرسل سليمان رجالاً اليه فاغتالوه وجاؤوا برأسه فبعث الى موسى والرأس بين يديه : فلما حضر قال له في ملأ من القوم : (أتعرف هذا الرأس يا موسى) قال نعم : هـذا رأس عبد العزيز . ثم وقف فأبّن ابنه تأبيناً مؤثراً فرد عليه سليمان رداً مُرمضاً . وأذن له أن يأخذ رأس ابنه فحمله في طرف قميصه وقام يشق صفوف الناس حتى خرج من المجلس .

غير أن سليمان عاد فعرف كذب ما بلغه من خروج عبد العزيز عن الطاعة فندم على قتله . ولكن هيهات ، أن يُرجع الندم مافات . أو يحيي عظام الأموات .

وفي كتاب (النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج ١ ص ٢٣٢) ذكر سبباً لهياج الاندلسيين على عبد العزيز واغتياله . ملخصه أن زوجته (مرأة رذريق) حملته على أن يسجد الناس له كما كانوا يفعلون لزوجها فأبى فألحت ثم رضي بان تبني لمجلسه باباً صغيراً يطأطئون له فيه عند الدخول واقترحت أن تعمل له تاجاً ذهباً فأبى فالحت ففعل وقالت له : الآن لحقت بالملوك . فعلم الناس فقالوا تنصّر وثاروا عليه فقتلوه وهو يصلي وأرسلوا رأسه الى سليمان . وما وقع كان دسيسة من سليمان وهي من زلاته . اه ملخصاً .

وذكروا من جملة أسباب حقد سليمان على موسى ان موسى لما كان في الأندلس قُحِطَ الناس وأجدبوا فاحتفل لصلاة الاستسقاء فأمر الناس بالصيام ثم جمعهم في المصلى العام : المسلمون في جانب وأهل الذمة في

—أبيه ليأخذ منها . فقال عمر : امسكوا يده ثم رفع يديه وقال : (اللهم بنفسها اليه كما حبيتها الى موسى بن نصير) ثم قال : خلوا عن الغلام فكأنما رأى بها (اي بالدنانير) عقارب .

جانب . والنساء في جانب ـ والصبيان في جانب ـ والبهائم في جانب . وخطب فيهم خطبة بليغة ولم يدعُ للخليفة . فلما اراد النزول قالوا له : (ألا تدعو لأمير المؤمنين ؟) فأجابهم (هذا مقام لايدعى فيه غير الله) ثم سقوا غيثاً مدراراً . وبالطبع كان في ذلك الاجتماع جواسيس فنقلوا الخبر الى سليمان وكان يومئذ ولي عهد . فعدّه عليه من جملة الذنوب .

ويروى أن بعض أصدقاء موسى لامه قائلاً : (لماذا لم تستقل بافريقية والأندلس وتخرج على الخليفة الذي نكبك بنفسك وابنك هذه النكبة ؟) فاجابه : لا تلمني فان الهدهد يرى الماء يجري تحت الأرض ثم هو مع ذلك يقع في الفخ . ولقد عوتب الهدهد نفسه هذا العتاب فقال : (إذا نزل القضا عمي البصر) .

* * *

أما اليوم التاريخي العظيم فهو اليوم الذي دخل فيه موسى بن نُصير من (باب الجابية) الى دمشق ، في موكب فخم يقلّ نظيره . وكانت أخبار قدومه وصلت الى الخليفة الوليد والى أهل دمشق وتجارها . وكانت خيل البريد اذا قعقعت بهـــا عند باب الجامع المسمى اليوم بباب البريد — رأيت الناس يتراكضون زرافات ووحدانا يسألون عن الأخبار ويتخاطون الرسائل والمكاتيب . من ذلك مكتوب تلقاه تاجر من عميله في مصر يقول فيه :

(ان موسى بن نصير قام بموكبه من القيروان في تونس فمرّ على طرابلس الغرب وبنغازي ووصل الى مصر ، وكان وصوله يوم الخميس ٦ ربيع الأول سنة ٩٦ للهجرة فأقام فيها ثلاثة أيام ولم يبق شريف من أشرافها إلا زاره ونال صلته) .

ووصل الى دمشق سرعانُ الناس من رفاق موسى فجعلوا يتحدثون عن الركب ويصفون مافيه من الغنائم والذخائر والأسرى وأخبروا أن موسى

وصل الى فلسطين ونزل على آل روّح بن زنباع فنحروا له خمسين جزوراً ومكث عندهم يومين ثم رحل بعد أن أسنى لهم الألطاف والهدايا . وأخذ أهل دمشق من يومئذ يتوقعون قدوم موسى وكان هو يسير الهوينا رفقاً بمن معه من الأسرى وفيهم الأطفال الصغار والملوك المترفون والنساء المنعّمات . وكان وصوله الى دمشق يوم الجمعة أوائل شهر جمادى الاولى من سنة ست وتسعين للهجرة ، وهو يوافق منتصف كانون الثاني من سنة سبعمائة وأربع عشرة للميلاد . فلم يكد يسفر صباح ذلك اليوم حتى هب أهل دمشق من مراقدهم مبكرين يحتفلون بقدوم فاتحهم العظيم موسى وقد أقفلوا مخازنهم سوى حوانيت الشوارع المؤدية الى الجامع الاموي ، وكان اليوم صاحياً والهواء بارداً والشمس ترسل أشعتها الذهبية فتلطف من قُرّ البرد . وما كانت شدة البرد لتمنع النساء والأولاد وعامة النساء من الانتشار في الغيطان والمروج الممتدة بين القدم وباب الجابية ، وكانت نساء الاكابر راكبات في الهوادج ومعهن الخدم والمماليك ، وكثر الزحام في شعب الطرق المؤدية الى باب الجابية ، لأن الناس يعرفون أن الموكب لابد أن يمر فيه الى الجامع . وكان بين الساعين لمشاهدة الموكب سيد كريم من الجوالي أي من أهل الحجاز المتوطنين في دمشق واسمه زرعة بن مضرّس الفقعسي وكان له صديق تاجر حانوته في باب الجابية فقصد اليه ومعه ابنه الشاب وصديق له من أهالي دمشق وراءه خادم يحمل بنتاً له في الخامسة من عمرها كان يحبها جداً واسمها (عمرة) ولم يصل الى الحانوت الا بشق النفس لما أن العامة والصبيان وفلاحي الغوطة كانوا يتدافعون ويتلاكمون من شدة الزحام وضيق الطرق .

وقد تعب التاجر صاحب الحانوت حتى أمكنه ايصال صديقه زرعة ورفاقه إلى حانوته ، فبسط لهم سجادة جلسوا عليها . وأخذ زرعة ابنته عمرة من الخادم وأجلسها في حجره . ثم سأل صديقه التاجر صاحب الحانوت عن الموكب ومتى يصل ؟ فقال يصل عند الظهر في غالب الظن . وأخذ التاجر يصف لهم تنقل الموكب في فلسطين حتى وصل الى الرملة

فحوران وانهم وصلوا أمس الى جابية الجولان وباتوا على التل المسمى : (تل الجابية) فقال الدمشقي صديق زرعة (حماهم الله من الأطمي) فضحكوا فسأله زرعة وكيف ذلك فاجابه التاجر ، وكان خبيراً بقرى حوران : ان ذلك التل مشهور بكثرة حياته . ثم جعلوا ينظرون الى المارة وأزيائهم ومختلف لغاتهم : يهود يتكلمون العبرانية ، ونصارى سريان من بقايا الآراميين يتراطنون السريانية ، ونصارى من عرب غسان ، وجوالي من عرب الحجاز يتباغمون بالعربية الفصحى ، وغرباء آخرين : أنباط وتدمريين يتكلمون بلغة بين العربية والسريانية ، وتجار من العراق مروا بقوافلهم في تدمر الى دمشق ، فاسرعوا إلى مشاهدة الموكب .

وكانت هذه الطوائف تسبح في بحر كثيف من الأهالي : نساء وصبيان ورجال وفلاحين وصناع وعامة ورعاع يتخللهم ركاب الحمير والبرازين والأبل ويتوسطهم اللعّابون والمقلّسون(١) وأصوات أهازيجهم وزمورهم تملأ الفضاء . وكانوا كلهم مغتبطين برؤية هذا الموكب وما فيه من الغرائب والعجائب والكنوز والذخائر والأسارى المختلفي الأجناس والأزياء والسحنات . وكان للتاجر صاحب الحانوت معرفة باخبار الفتوحات الافريقية لكثرة ما كان يجتمع بالقادمين من أفريقيا والأندلس . فقال لزرعة ان موسى قد ظفر بما لايثمن من الكنوز والتحف والذخائر وبينها مائدة سليمان بن داود عليه السلام والتاج الذي نزل من السماء . فتعجب الشاب العربي ابن زرعة وسأل التاجر : كيف ينزل التاج من السماء ؟ فعبس أبوه في وجهه وأسكته . ثم سأل زرعة التاجر عن موسى بن نصير من أي البلاد هو ؟ فقال : هو شامي فلسطيني من موالي بني أمية وأبوه من جبل الخليل بفلسطين وولد ابنه موسى في قرية (كفر مندي) من قرى تلك النواحي . وقد نشأ

(١) التقليس استقبال الولاة عند قدومهم بالطبل وصنوف اللهو .

فطناً عاقلاً . وكان جسيماً ضخم الجثة : يحكى أن معاوية أرسله هو والمهاجر ابن دَعْلج الى أبي الأعور السُّلمي قائد حملة قبرص . فلما قدما عليه رأى موسى بن نصير أجسم من المهاجر فقال (ماينبغي للسلطان أن يستعين إلا بالجسيم لهيبته) . ثم قال التاجر : ولكن موسى أعرج . ومع هذا لم يمنعه عرجه من بلوغ مدينة سرقسطة (سراكوسا) الواقعة في أقصى الأندلس شمالاً . ومن ثم أطلق العرب عليها اسم (الثغر الأعلى) وقد تجاوزها موسى إلى بلاد فرنجة (فرنسة) وبلاد البشكس (وهي الواقعة على الخليج المسمى خليج بسكي أو خليج كاسكونيا بين فرنسا واسبانيا) . ولما دخل موسى بلاد البشكس وجد فيها قوماً كالبهائم وسيّر المراكب الى جزائر بحر الروم وفتح صقلية (سيسليا) وسردانيا وارسل ابنه عبد الله الى جزيرتي (ميورقة ومنورقة) ففتحها وتسمى غزوته هذه غزوة الاشراف لكثرة ما كان فيها من أشراف الناس . قال التاجر :

وكان موسى يلوم عقبة بن نافع فاتح المغرب ويقول انه غرر بنفسه منذ أوغل في بلاد البربر حتى قتلوه . فلما فتح موسى بلادهم انتقم فبطش بهم وسبى نحو عشرين الفاً منهم وهرب ملكهم (كسيلة) من وجهه . قال : ويتحدث الركبان عن الغنائم التي غنمها موسى في الأندلس باخبار لا تكاد تصدق : من ذلك أنه جاءه انسان فقال ابعثوا معي حتى أدلكم على كنز ، فبعث معه نفراً من رجاله فقال لهم انزعوا ههنا فنزعوا فسال من الزبرجد والياقوت شيء لم يروا مثله قط . فلما رأوه بهتوا وقالوا لايصدقنا موسى فارسلوا اليه فجاء فنظر بعينه . ثم قال التاجر وهذا ليس بالامر العجيب وانما العجيب ماسمعته من حاشية قصر الخلافة ذلك أن موسى رأى في بعض الجزائر ستة عشرة جرة خضراء مختومة بخاتم سليمان ففتح واحدة فاذا شيطان ينفض رأسه وهو يقول : والذي أكرمك بالنبوة لا أعود بعدها أفسد في الأرض . ثم نظر الشيطان حوله فقال : والله لا أرى

سليمان بن داود ولا ملكه ، ثم انساخ في الأرض وغاب . عندها أمر موسى بالجرار البواقي فردت الى أماكنها . فلما سمع الشاب العربي ابن زرعة هذه القصة عن سليمان بن داود حلف بانها لا أصل لها وانما اخترعها بعض اليهود تعظيماً لشأن ملوكهم وانهم أسبق من العرب في النبوة والملك . فانتهره أبوه زرعة فلم ينته وعقب قائلاً : ان رواج هذه الاساطير بيننا معشر العرب يشوّش عقائدنا ثم يخبّل عقولنا . فاجابه التاجر : مهما شككت في حوادث فتح الأندلس لايمكنك أن تشك في خبر مائدة سليمان فاراد الشاب أن يتكلم فاسكته أبوه وقال للتاجر : هات خبرك عنها فقال : لما فتح العرب طليطلة وجدوا فيها داراً تسمى (بيت الملوك) وقد سموها بذلك لأن فيها حجرة نسقت فيها تيجان ملوك الأندلس وعددهم ٢٤ ملكاً وقد كتب على كل تاج اسم صاحبه وعمره ويوم ولايته ويوم موته . وفي الدار حجرة أخرى جمعت ماشاء الله من الطرف النفيسة والذخائر الثمينة . من ذلك مائدتان احداهما من جزْع[1] . والاخرى أعجب منها . ولذلك سموها (مائدة سليمان) . وقالوا في صفتها انها من ذهب وفضة خليطين تتلوّن صفرة وبياضاً مطوقة بثلاثة أطواق لؤلؤ وياقوت وزمرد . وليس لها أرجل وانما ترتكز على قاعدة من ذاتها ، وهي ثقيلة وضخمة حتى أن البغل الذي حملها لم يسِرْ بها منقلة (أي مرحلة) واحدة حتى تفتحت قوائمه . ولما أراد موسى أن ينقل التيجان والمائدتين من الاندلس الى افريقية أمر أن تقطع عليها الاغشية (أي ثياب تجللها وتحفظها من التلف) وأقام عليها الحراس والامناء يصونونها من مس الايدى . وكانت شيئاً لاتدرى قيمته . فاجابه زرعة : سمعت أن رجال موسى كانوا يظفرون بالطنفسة المنسوجة

(١) الجزع بفتح فسكون حجر كريم اشهره اليماني وفيه سواد وبياض . سمي (جزعا) من قولهم جزعَ الوادي قطعه عرضاً فهو : مقطع بخطوط عرضية بألوان مختلفة من سواد وبياض .

بقضبان الذهب المنظوم باللؤلؤ والياقوت والزبرجد فكان البربريان ربما وجداها فلا يستطيعان حملها حتى يأتيا بفاس فيضربا وسطها فيأخذ أحدهما نصفها ورفيقه نصفها والناس مشتغلون عنها بغنائم أخرى .

وقد خشي أهل التقوى والصلاح من اقبال الدنيا عليهم بزينتها وزخرفها حتى زعم بعض أولئك الصالحين أنه سمع هاتفاً يقول : أيها الناس قد فتح عليكم باب من أبواب جهنم . فاجابه تاجر الجابية : ومع هذا فقد بلغني أن موسى حفظ الغنائم فلم يقسمها بين الفاتحين وأرسل الى الخليفة الوليد يستأذنه في قسمتها ، وتأخر جواب الخليفة ورأى موسى الكثيرين من جنوده قد رثت حالهم وبدت عليهم آثار الخصاصة والفقر فصعد المنبر يوم العيد في مدينة القيروان وخطبهم خطبة بليغة وأعلن قسمة الغنائم بينهم وإذا لم يوافق الخليفة على قسمتها ضمنها هو لبيت المال . وزيادة على ذلك منح موسى المجاهدين المعوزين معونة يعطيهم إياها كل سنة من ماله الخاص .

فأكبر العرب هذه المأثرة من موسى . وقال شاعرهم في مدحه :

قد سنّ موسى سنة وأثرا ... مآثراً محمودة لن تنكرا
بالقيروان فاق فيها البشرا ... معونة أطابها وأكثرا
لما علا في العيد فينا المنبرا ... كأنه البدر إذا ما بدرا
أصبح موسى بالتقى مؤزّرا ... أحيا التقى فينا وأحيا السورا
فالحمد لله الذي تكبرا ... أعطاك ملكاً وحباك الظفرا

وكان زرعة وجماعته تارة يتحدثون باخبار موسى ومآثره وطوراً ينظرون الى الجماهير المتدفقة أمامهم تدفق السيل . فتهلل زرعة وبدت على وجهه أمارات العجب والمباهاة وقال حقاً إن هذا اليوم من مفاخرنا معشر العرب وأكبر مظهر من مظاهر عزنا . وما ضرّ موسى بن نصير مافعله بعد اليوم : فقد أتى عملاً تحفظه له الاجيال القادمة . وأي عمل أعظم من أن يركز راية

الاسلام على اسوار (سرقسطة) الواقعة في حدود بلاد الفرنجة (فرنسة) .

فقال تاجر الجابية حدثني بعض جنوده الذين عادوا منذ شهر وكان شهد معه فتح (سرقسطة) أن موسى كان مصمماً على مجاوزتها في مجاوزة بلاد الفرنجة . قال الجندي فخفنا أن يحيط بنا العدو ويهلكنا فاوعزنا سراً الى (حنش بن عبد الله) أحد أخصاء موسى فافضى اليه بهذه النصيحة قائلاً :

كنتَ يا موسى تلوم عقبة بن نافع على تغريره بنفسه في بلاد البربر حتى قتلوه وتتعجب من عدم وجود ناصح ينصح له وها أنا ذا أيها الامير ناصحك اليوم : أتلتمس غنيمة أفضل مما غنمت ؟ أتريد أن تطأ من أرض العدو أكثر مما وطئت ؟ لقد بلّغك الله أن جعلك أبعد المسلمين أثراً في الجهاد وفتح عليك مالم يفتحه على أحد من القواد . وقد أحب جندك السلامة واشتاقوا الى الأهل والولد فارجع راشداً أيها الأمير . فاجابه موسى : قد قبلت نصيحتك وشكرت لك عليها . ثم رجع وكان بعد ذلك يقول : والله لو انقادوا لقدتهم حتى وقفتهم على رومية العظمى ثم ليفتحنّها الله على يديّ إن شاء .

ولم يكد تاجر الجابية يتم حديثه هذا حتى رأوا الجماهير يتراجعون القهقري واشتد الزحام الى أقصى مداه واذا الناس يهتفون : ها قد وصلت طليعة الموكب ، واذا الناس يحاذبون رجلاً دمشقياً من سرعان جيش موسى أسرع كي يرى أهله وأولاده ، فأخذوا يسلمون عليه ويستوصفونه الموكب وهو يقول : سترون سترون .

وكان هذا الجندي صديقاً لتاجر الجابية فناداه اليه وألح عليه أن يجلس معهم ويريح نفسه قليلاً . وكان الرجل شعثاً مغبراً يلهث من التعب فجلس وقدم اليه التاجر كوباً من شراب نبيذ التمر فشربه وأطفأ به عطشه ثم مسح شاربيه . ونفض الغبار عن عارضيه وأخذ يحدثهم عن مسير موسى منذ فارق القيروان حتى وصل رملة ثم حوران وقال انه هو

فارقهم من هناك . فسأله زرعة وماهي ركائبهم ؟ قال : إن أميرنا موسى أمر أن تصنع له عجلات (أي عربات) فصنع له منها مائة وثلاثون عجلة فاعدها لحمل الغنائم عدا الابل والبغال للركوب . وقد أمر أولاده وامراء جيشه وأشراف قومه أن يتهيأوا للذهاب معه الى دمشق والدخول اليها بشكل موكب كما أمر جميع عظماء البلاد والجزائر التي افتتحها أن يتهيأوا أيضاً ليأخذهم معه واستخلف على الاندلس ابنه عبد العزيز الملقب (بطل افريقية) كما استخلف على أفريقية ابنه الآخر عبد الله . وأمر أولاده الآخرين أن يصحبوه . ثم اشتد تهامس الجماهير وتطلّع النظارة ، وران السكوت على الناس واتجهت الابصار الى فوهة الطريق واذا طلائع الموكب أقبلت فقال الجندي انظروا :

١) هؤلاء الذين ترونهم في مقدمة الموكب هم (مروان) و (عبد الأعلى) و (عبد الملك) أولاد أميرنا العظيم موسى بن نصير . فاذا هم شبان رائعو الطلعة حسنو الشارة وآثار النجابة والنخوة العربية بادية على وجوههم . وجاءت بعدهم كوكبة من الرجال فقال الجندي :

٢) هؤلاء الأشراف والسادات من قريش والانصار وسائر قبائل العرب والموالي . قال الشاب ابن زرعة للجندي : وهـــذا الفوج الذي بعدهم ؟ قال :

٣) هؤلاء مائة من عظماء قبائل البربر (زناته وصنهاجة سكان شمال أفريقية الأصليين) وفيهم بنو (كسيلة بن لمزم) وبنو (قصدر) وغيرهم من أولاد ملوك البربر . ولما سمع زرعة اسم (كسيلة) شتمه وقال : انه هو وقومه الذين قتلوا قائدنا الاكبر والفاتح الأول عقبة بن نافع رضي الله عنه . فقال الجندي : ولكن أميرنا موسى بن نصير أخذ ثأر عقبة : ففتك منهم عشرين الفاً ولم يكتف بهذا القدر من أخذ الثأر بل تزوج ابنة ملكهم (كسيلة) فضحكوا وقالوا حقاً إن العرب أشد الأمم ولوعاً في أخذ الثار .

٤) ثم لم يرعهم إلا رجل في الموكب بيّن الجلالة وافر العظمة فقال الجندي : هذا ملك السوس الاقصى المسمى (مزدانة) وكان عاملاً للروم في تلك البلاد وسم عاصمته (أرسان) وقد أسره (مروان) بن موسى في المعركة . قال :

٥) وهذا الذي بعده ملك جزيرة (ميورقة) من جزائر بحر الروم أسره عبد الله بن موسى . واذا بكوكبة ممتازة في زينتها وحسن شارة رجالها فقال الجندي :

٦) هؤلاء عشرون ملكاً من ملوك جزائر بحر الروم . وأطلّ بعدهم فوج أكثر عدداً منهم فقال الجندي :

٧) هؤلاء مئة ملك من ملوك الأندلس ومن القوطيين والافرنجيين (يعني الافرنسيين) وغيرهم . قال : وكان مروان ابن الامير أسر أحد هؤلاء الملوك .

٨) وبعد مرور أفواج الرجال جاء دور الغنائم فقال الجندي انظروا هذه المئة والثلاثون عربة تحمل مائدة سليمان والتيجان والذهب والفضة وأصناف الحرير والوشي وما شاء الله من ضروب المتاع الثمين والآنية الفاخرة . ثم تلا ذلك عجلات أخرى فقال الجندي :

٩) هذه العجلات تحمل أصناف مافي كل بلد من البلاد المفتتحة من بزّها ودوابها ورقيقها وطرائفها ومالا يحصى من خيراتها[1] .

م في هذا واذا الجندي ينهض واقفاً . ويصرخ هاتفاً :

١٠) وهذا هو أميرنا العظيم موسى بن نصير قد أقبل عليكم يا أهل الشام يجرّ الدنيا وراءه جرّاً . فاشرأبت الاعناق وتعالت الاصوات بالدعاء

(١) أقول وهذا القسم من الموكب يشبه المعارض الجغرافية التي تقام في ايامنا هذه لعرض محصولات المستعمرات .

لموسى ولأولاده بالدعاء والثناء على جهودهم العظيمة . فكان موسى يلتفت اليهم ويقابل دعاءهم بابتسامة متواضعة بريئة كما يقولون اليوم . وبقي موسى سائراً حتى بلغ الدار الخضراء أو القبة الخضراء وهي اسم لقصور خلفاء بني أمية واقعة في قبلي الجامع (حيث حارة النقاشات اليوم) وبينها وبين الجامع دهاليز كان يدخل الى الجامع منها . فقسم موسى موكبه الى قسمين : قسم مؤلف من أبناء ملوك البربر والروم وصقلية (سيسليا) وسردينيا وميورقة ومنورقة وأبناء ملوك الاشبان (أي اسبانيا) وأبناء ملوك افرنجة (أي فرنسة) : كل هؤلاء يلبسون التيجان ويأخذون زينتهم وأجمل ثيابهم ويقفون صفوفاً على باب الدار (الخضراء) وتكون معهم العجلات المثقلات بخزائن الأموال والجواهر . أما القسم الآخر فثلاثون ملكاً من ملوك الأقاليم يضعون تيجانهم على رؤوسهم ويلبسون حللهم الرسمية التي اعتادوا لبسها في أعيادهم . ثم يدخلون مع موسى الى جامع بني أمية . وعلى هذا الترتيب دخلوا الجامع وقت صلاة الجمعة والخليفة الوليد يخطب الناس على المنبر وهو موهون (أي مصاب بالواهنة أي المرض العصبي) وقد أثرت فيه العلة ونهكه المرض . فما راع جمهور المصلين الا موسى والملوك الثلاثون فتصايحوا من كل جانب : موسى ، موسى !!

ورآهم الوليد من فوق أعواد منبره داخلين من أبواب الحرم فبهت اليهم . ثم أقبل موسى حتى سلم على الوليد ووقف الملوك الثلاثون بالتيجان من عن يمين المنبر وشماله . عندها عاد الوليد الى خطبته فحمد الله وأثنى عليه وشكره على ما أيده به وفتحه عليه ثم تكلم بكلام لم يسمع منه قبل اليوم . ثم صلى بالناس ورجع الى قصره ودخل عليه موسى وأخذ يعرض عليه رجال الوفد وملوك الأقاليم :

بدأ أولاً بملوك البربر ثم ملوك الروم فملوك الاشبان فملوك افرنجة . ثم قدم اليه رؤساء قبائل العرب الذين كانوا معه من قريش وغيرهم .

فأحسن جوائزهم وفرض لهم في الشرف(١) وفرض لأولاد موسى كذلك وخصائة من مواليه . ثم عرض ما قدم به من التحف والطرف والهدايا : فقدم الدر والياقوت والزبرجد والوصفاء والوصائف والوشي ومائدة سليمان ومائدة الجزع وتيجان ملوك الاشبان .

فسر الوليد بذلك سروراً عظيماً وصب على موسى ثلاث خلع وأجازه بخمسين ألف دينار (أي عشرين ألف ليرة ذهبية) .

* * *

هذا أيها السادة مظهر من مظاهر عظمة الاسلام قبل أن يمر عليه قرن واحد من بدء ظهوره . ثم ان المسلمين غيروا ما بانفسهم من أخلاق وآداب وقصروا في مايجب عليهم إتقانه من علوم وفنون فأخذ ملكهم عن جنوب أوروبا وشمال أفريقية يتقلص رويداً رويداً . وبجدهم في تلك الربوع وفي غيرها يتضاءل قليلاً قليلاً . حتى لم يبق للمسلمين من جميع ما كان في أيديهم . سوى بقايا دموع تترقرق في مآقيهم .

فيا مجد قومي عليك العفا ويا ذلك الملك عليك السلام

(١) الشرف بفتحتين او هو الشُرَف جمع شرفة وهي خيار المال اي انه فرض لهم رواتب من خيار المال واعلاه درجة .